مقدمة

لا يستطيع أحد أن ينكر أن ثمة أزمة ثقة تشوب العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن هذه الأزمة محصلة لتراكمات كثيرة ، تاريخية ومعاصرة ، بعضها تم بطريق الصدفة والخطأ ، وبعضها وقع عمداً وبسوء قصد .

ولا سبيل إلى تخطي هذه الأزمة الا بمواجهة أسبابها ، بأقصى قدر ممكن من الصراحة والشجاعة والحسم ، لأن أي سكوت أو مداراة على تلك الأسباب ، هو بمثابة تجاهل لألغام مزروعة في الجسم العربي والإسلامي . وإذا كان قد قدر لبعض هذه الألغام أن ينفجر بأشكال وأحجام مختلفة في بعض الدول العربية – لبنان ومصر بالأخص – فيعلم الله أين وكيف ستكون الانفجارات التالية ، إذا استمر الحال على ما هو عليه ، ولم تتضافر الجهود لنزع تلك الألغام وإبطال مفعولها .

فليس من اليسير أن تمحى من تلك الذاكرة فظائع ومرارات الحروب الصليبية ، وليس من اليسير أن ينسى المسلمون عذابات إخوانهم في الأندلس وصقلية . وعسير بنفس القدر أن ينسى المسلمون المعاصرون معاناتهم في ظل الاستعمار الانجليزي في المشرق ، والاستعمار الفرنسي في المغرب ، أو أن يتجاهلوا أحزان الأقليات المسلمة في مختلف دول آسيا وأفريقيا ، وما يلقونه من ظلم وعسف على أيدي غير المسلمين .

وإذا كان الفاعل الأساسي في ذلك كله هو غير المسلمين في خارج العالم الإسلامي ، الأمر الذي قد يبرر مشاعر الارتياب والرفض من جانب قطاعات عريضة من المسلمين ، الا أن هذه المشاعر انعكست أيضاً ـ وللأسف ـ على موقف البعض من غير المسلمين الذين يعيشون معهم وفي بلادهم .

إن هذه الملابسات لم تفرز فقط جروحاً في الذاكرة والأعماق الإسلامية ، ولكنها أيضاً تركت بصمات قوية على الفقه الإسلامي . ذلك أنه إذا كان الدين من صنع الله ووحيه ، فإن الفقه يظل من صنع التاريخ ، الأمر الذي خلف لنا تراثاً من الصياغات والاجتهادات الفقهية ، يحتاج بعضها إلى مراجعة . في حين يحتاج البعض الآخر إلى حذف وإلغاء ، سواء لأنها لا تعبر تماماً عن روح التعاليم السماوية ونصوصها ، أو لأنها كانت نتاج ظروف تاريخية طويت وانقضت ، ولم تعد معبرة عن روح العصر ومتطلباته .

في الجانب غير الإسلامي هناك أيضاً شكوك ومحاذير ، وجروح في الذاكرة لا زالت باقية لم تندمل . وهذه الشكوك والجروح بعضها ناشيء عن تلك الممارسات الشاذة والخاطئة التي تشكل استثناء على الموقف الإسلامي العام تجاه غير المسلمين . والبعض الآخر ناشيء عن تخوف من عدة نصوص واجتهادات إسلامية ، روج لها البعض فهماً غير صحيح يهدر حقوق الآخرين ويهددهم ، فضلاً عن أنه من بين تلك الاجتهادات ما هو ظالم وغير منصف حقاً لغير المسلمين .

وقد عمق من تلك الشكوك والمخاوف أن بعض الدعاة الإسلاميين في زماننا هذا تبنوا موقفاً متشدداً من غير المسلمين ، اعتمد بالدرجة الأولى على تأويل نصوص الكتاب والسنة وتلك الاجتهادات الفقهية غير المنصفة .

وإذ يُبرَّر التخوف في هذه الحالة ، الا أن ما ينبغي الانتباه إليه هو أن هذا الشذوذ الفكري السائد في زماننا لم يصب غير المسلمين فقط ، ولكنه أصاب المسلمين أيضاً . بل أكاد اقول إن إصابة المسلمين منه أفدح ، لأن ما أصاب غير المسلمين قد يكون ظلماً لا يغير من كونهم أهل كتاب في نهاية الأمر ، ولكن ما أصاب المسلمين هو « تكفير » وخروج على الملة ، عواقبه عظيمة ووخيمة !

مسؤليتنا عما يحدث

الأمر الأخير : وربما كان الأهم ، هو أننا نقع في خطأ جسيم إذا ألقينا تبعة الفتن والتمزق الطائفي على الغرب وحده . لأن مسؤوليتنا تظل قائمة رغم كل محاولات الغرب وحيله ودسائسه . فالاختراق لا ينجح إلا في جسد قابل للاختراق ، والجراثيم أول ما تصيب الأجسام التي تفتقد إلى الحصانة والمناعة ، وإذا كان المفكر الجزائري مالك بن نبي قد رفض إلقاء تهمة تخلفنا على الاستعمار وحده ، وصك تعبير «حالة القابلية للاستعمار» في تشخيصه لأمراضنا الفتاكة ، فقد يسوغ لنا أن نقرر أيضاً أن المسؤولية الأولى في اختراق الواقع العربي والإسلامي ترجع إلى حالة القابلية للاختراق التي نعيشها . هو هشاشة وهزال أوضاعنا الداخلية من جراء تلك السياسات التي تجرد شعوبنا بين الحين والآخر من عناصر قوتها وثباتها ، ومن مقومات الصمود والمقاومة لرياح التفرقة والتشرذم والتفتيت .

إن درس التاريخ الذي يجب أن نحفظه هو أن الفاعل الأول في ما يلحق بنا من هزائم وانتكاسات ، هو نحن قبل غيرنا !

وهو ليس درس التاريخ وحده ، بل هو منطق السماء أيضاً الذي تقرره الآية الكريمة «وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون» (القصص ــ ٥٩) .

معايشة منذ بدء الدعوة

على المستوى الأول ، نجد أن ثمة معايشة كريمة بين المسلمين وأهل الكتاب منذ بدء الدعوة ، كانت تتم بصورة تلقائية ، بغير حساسية ولا خصومة ولا عقد !

« لقد كان للرسول جيران من أهل الكتاب . وظل يتعهدهم ببره ، ويتبادل معهم الهدايا . حتى ان امرأة يهودية دسّت له السم في ذراع شاة أهدتها إليه ، لما كان من عادته أن يتقبل هديتها ويحسن جوارها [١٩] .

ولما جاء وفد نصارى الحبشة ، أنزلهم رسول الله في المسجد ، وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم ، وكان مما قاله يومئذ : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، فأحب أن أكرمهم بنفسي ..

وجاء مرة وفد نصارى نجران ، فأنزلهم في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه . فكانوا يصلون في جانب منه ، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر !

كل مخلوق له في الإسلام حصانة وحرمة . وهي حصانة لا تظلل كائناً دون آخر ، فضلاً عن أنها ليست مقصورة على إنسان دون آخر . فالروح التي تسري في كل كائن ، والتي هي «من أمر ربي» ، بنص القرآن الكريم ، لها كرامتها التي ينبغي ألا تهدر في غير حق .

ولأن الأمر كذلك ، فكل مخلوق له حقوق واجبة الاحترام . ينسحب ذلك على الإنسان كما ينسحب على الطير والحيوان .

نعم ، للطير والحيوان حقوق في التصور الإسلامي ، يحاسب الله الناس على التفريط فيها أو انتهاك حرماتها ، بقدر ما يثاب المرء على رعايتها والإحسان فيها . ولا يكاد يخلو كتاب في الفقه أو الحديث من فصل أو باب يعالج هذه الحقوق ، مرة في باب الصيد ، ومرة في موضوع الذبائح .

هذا المخلوق المكرّم

إن الكتابات الإسلامية التي تعالج موضوع الإنسان من قريب أو بعيد ، لا تكف عن ترديد عبارات التكريم والاستخلاف التي يحفل بها القرآن الكريم . وهي ترسم صورة رائعة بحق لقيمة هذا المخلوق العظيم ، التي تحدد ملامحها العديد من الآيات ، في مقدمتها قوله تعالى : ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً (الاسراء ـ ٧٠) . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (التين ـ ٤) . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (الأعراف ـ ١١) . وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة (البقرة ـ ٣٠) . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (الحجر ـ ٢٩) .. إلى آخر الآيات في هذا السياق .

ومن أوقع ما قرأت تعقيباً على ذلك ، ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في مدخل

إن الآيـات التي تمجد الإنسان وتعلي مرتبته فوق كل المخلوقـات ، تتناول الإنسان لذاته لا لاعتقاده .. من حيث هو تكوين بشري ، وقبل أن يصبح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً ، وقبل أن يصبح أبيضَ أو أسودَ أو أصفرَ ..

وليس صحيحاً على الإطلاق أن تلك الحفاوة القرآنية من نصيب المسلمين دون غيرهم كما يتصور البعض . ذلك أن النصوص القرآنية شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات ، فهي تارة تتحدث عن «الإنسان» وتارة تتحدث عن «بني آدم» ، ومرات أخرى توجه الحديث إلى «الناس» . وهذا التعميم لا تخفى دلالته على أي عقل منصف ومدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم ، التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة ، تحسب بها متى يكون الخطاب للإنسان وللناس بعامة ، ومتى يوجه الكلام للمؤمنين والمسلمين قبل غيرهم .

«إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية ليست كرامة مفردة ، ولكنها كرامة مثلثة : كرامة هي عصمة وحماية ، وكرامة هي عزة وسيادة ، وكرامة هي استحقاق وجدارة .. كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته (ولقد كرمنا بني آدم) الإسراء ـ ٧٠ ، وكرامة تتغذى من عقيدته (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) المنافقون ـ ٨ ، وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته (ولكل درجات مما عملوا) الأحقاف ـ ١٩ (ويؤت كل ذي فضل فضله) هود ـ ٣ .

«أوسع هذه الكرامات وأعمها وأدومها ، تلك الكرامة الأولى التي ينالها الفرد منذ ولادته ، بل منذ تكوينه جنيناً في بطن أمه .. كرامة لم يؤد لها ثمناً مادياً ولا معنوياً ، ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين في شريعة الإسلام .

«ما حقيقة تلك الكرامة ؟ .... إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة .

هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر : ذكراً أو أنثى ، أبيض أو أسود ضعيفاً أو قوياً ، فقيراً أو غنياً ، من أي ملة أو نحلة فرضت ... ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك ، وعرضه أن ينتهك ، وماله أن يغتصب ، ومسكنه أن يقتحم ، ونسبه أن يبدل ، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه ، وضميره أن يتحكم فيه قسراً ، تعطل حريته خداعاً ومكراً .

« كل إنسان له في الإسلام قدسية الإنسان ، إنه في حمى محمي وحرم محرم ، ولا يزال كذلك حتى يهتك هو حرمة نفسه ، وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه ، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانباً من تلك الحصانة . وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها ، لأن جنايته ستقدر بقدرها ، ولأن عقوبته لن تجاوز حدها ، فإن نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو ، فلن تنزع عنه الحجب الأخرى .

« بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه كما يحمي أبناءه وأولياءه .... إنه يحمي أعداءه في حياتهم ، ويحميهم بعد موتهم ، يحميهم في حياتهم ، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدأوا بالعدوان ويحميهم في ميدان القتال نفسه ، إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال . ثم يحميهم بعد موتهم ، إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل (بنص الحديث الشريف) ... ولم لا ؟ أليسوا أناسي ؟ فلهم إذاً كرامة الإنسان ...

«هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها ، هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين بني آدم»[٥] .

أليست نفساً ؟

هذه الحقيقة الكبرى في التصور الإسلامي ، كانت لها أصداؤها ، في عديد من النصوص والشواهد .

ففي ظلها تفهم أبعاد البيان الإلهي في سورة المائدة (الآية ٣٢) «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» . وهو تصور بالغ القوة ، في الدلالة على بشاعة جريمة قتل الإنسان ظلماً بغير حق . إذ هي في هذا النص ليست عدواناً على الفرد فقط ، ولا عدواناً

على المجتمع كما تنص القوانين الجزائية أو الجنائية الوضعية ، ولكنها شيء أكبر وأفدح : إنها عند الله سبحانه عدوان على الناس جميعاً ، على الجنس البشري بأسره !

إن النص القرآني هنا يتحدث عن «النفس الإنسانية» وعن «الناس» . دون تفرقة بين لون وجنس وملة ، «لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس» ، كما يقول ابن كثير ، فضلاً عن أن الآية «تعلمنا ما يجب من وحدة البشر ، وحرص كل منهم على حياة الجميع ، واتقائه ضرر كل فرد ، لأن انتهاك حرمة الفرد ، انتهاك لحرمة الجميع . والقيام بحق الفرد من حيث انه عضو من النوع ، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع ، قيام بحق الجميع» ، كما يقول الشيخ رشيد رضا(٦) .

وفي ظل تلك الحقيقة الكبرى نفهم قول النبي عليه السلام ، فيما رواه عنه هشام بن حكيم : أن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا ، فالعدوان على كرامة الإنسان هنا لا يكفي فيه العقاب الدنيوي ـ إن وجد ـ وإنما تلك وصمة تلاحق المعتدي في الآخرة ، حيث يلقى جزاءه عند الله أيضاً .

وفي ظلها أيضاً نقرأ القصة التي يسجلها البخاري ، من أن النبي قام من مجلسه تحية واحتراماً لجثمان ميت مر أمامه وسط جنازة سائرة ، فقام من كان قاعداً معه ، ثم قيل له فيما يشبه التنبيه ولفت النظر : إنها جنازة يهودي ؟ ... عندئذ جاء رد النبي واضحاً وحاسماً : أليست نفساً ؟ .... أليس إنساناً من خلق الله وصنعه ؟؟

الحياة مع الاخر

إذا حاولنا أن نضع أيدينا على مفاتيح الجسور التي أقامتها نصوص القرآن والسنة بين المسلمين والآخرين ، فقد يكفينا في البداية أن نمسك بمفتاحين اثنين فقط ، بهما نستطيع أن نشق طريقنا إلى نهاية الشوط كله ... نعبر الجسور ونفتح بقية الأبواب ، ونستكشف الحقيقة في موقف الإسلام من غير المسلمين .

المفتاح الأول في الآية التي تقول : لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي (البقرة ــ ٢٥٦) . والمفتاح الثاني في الأمر الإلهي : ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (البقرة ــ ١٩٠) .

يقودنا المفتاح الأول إلى التعرف على «الأصل» في رؤية الإسلام لمسألة الاعتقاد . الأمر الذي يعطي الاعتقاد حصانة غير قابلة للانتهاك ، ويفتح الأبواب للحوار بالحكمة والموعظة الحسنة . حيث إخوة الإنسان هي القاعدة ، والكلمة الطيبة هي الوسيلة .

ويقودنا المفتاح الثاني إلى التعرف على الأصل في موقف الإسلام من قضيتي الحرب والسلام . إذ المسلمون مطالبون بالتعايش مع «نظرائهم في الخلق» تحت ظلال المودة والرحمة ، الأمر الذي يفتح أبواب التعاون على مصاريعها . فقد خلق الله الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا ــ بنص القرآن ــ لا ليتعاركوا ويتنابذوا ، كما يتوهم البعض . والاستثناء الوحيد الذي يرد على هذه القاعدة هو أن يقع على المسلمين ظلم أو عدوان من جانب الآخرين . وهو ما سوف نفصله فيما بعد .

إن المعنى الهام الذي تقودنا إليه تلك القاعدة «في التفكير الإسلامي» ، هو الاعتراف «بشرعية الآخرين» . وهو اعتراف مبني على تلك الثوابت التي مررنا بها من قبل ، وعلى رأسها قيمة الإنسان وإخوة بني الإنسان ..

فالآخرون ليسوا شياطين وجنا ، وليسوا الجحيم كما يصوره البعض ، وليسوا «هراطقة» يستحقون الافناء والحرق ، كما كان يقال في أوروبا خلال العصور الوسطى .. إنهم بشر ، نظراؤنا في الخلق ، وإن اختلفت ألوانهم وأجناسهم ومعتقداتهم . وهم مقبولون ـ مهما اختلفنا معهم ـ ما داموا لم يمارسوا تجاه المسلمين أياً من المحظورين : الظلم والعدوان .

محصنون لأنهم بشر

إن شرعية الآخرين ليست مبنية على اعتقادهم ، حقاً كان أم باطلاً ، ولكن تلك الشرعية مبنية على تلك الحقيقة الكبرى التي قررها الإسلام من البداية : أنهم بشر ، لهم حقهم في الحصانة والكرامة والحماية[٢] .

إن اعتراف الإسلام بوجود وشرعية ـ وحقوق ـ الآخرين ، وإن كانوا على باطل ، يحدد على الفور صيغة العلاقة التي ينبغي أن تقوم ، عبر تلك الجسور ، بين المسلمين وغيرهم . ذلك أن «عدالة الإسلام إذ تبطل عصبية العرق وافتئات الطبقة وبغي أية فئة بوجه عام ، فإنها لا تقيم تسلطاً جائراً لمعتنقي الإسلام على غيرهم من أتباع سائر الأديان (كما يزعم البعض) . فإن القرآن قد خاطب رسول الإسلام نفسه عليه الصلاة والسلام ، بما هو حجة ماضية إلى يوم الدين على جميع المؤمنين برسالته» فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر . (الغاشية - ٢١ و ٢٢) وما أنت عليهم بجبار (ق ـ ٤٥)[٣] .

إلى ساحة التلاقي

يفضي بنا باب رفض الإكراه في الدين إلى ساحة التلاقي مع الآخرين ، التي تميز فيها هذه العلاقات الهامة ، ومنها وعبرها تمتد جسور الفهم والتفاهم أوسع ما تكون .

* فالرسول مكلف بالإبلاغ والتبشير ، لا أكثر .

ـ وما على الرسول إلا البلاغ المبين (العنكبوت ـ ١٨) .

ـ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر (الغاشية ـ ٢١ / ٢٢) .

ـ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا (سبأ ـ ٢٨) .

* والذين يتصدون للدعوة إلى الله يجب أن يلتزموا بآداب معينة :

ـ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن (النحل ـ ١٢٥) .

ـ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم (العنكبوت ـ ٤٦) .

ـ إنه من ثوابت التفكير الإسلامي إتاحة الفرصة للآخرين في حرية الاختيار ، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالإيمان والاعتقاد ، وهو ما يسميه البعض حرية «الضمير» .

ـ إن الأصل في مخاطبة الآخرين ودعوتهم إلى دين الله هو الحوار الذي يحترم فكر الآخرين ـ فضلاً عن إنسانيتهم ـ ، حوار ليس فيه غلظة ولا إساءة ولا استعلاء (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) ـ تظلله روح الأخوة وأنوار الحكمة . ويدلنا القرآن ذاته على العديد من صياغات وأساليب هذا الحوار ، ففي قصة موسى وفرعون ، يوحي الله سبحانه إلى موسى وأخيه هارون أن يذهبا إليه ، ليبلغاه بدعوة التوحيد وعبادة الله . ويكون التوجيه الإلهي هو «فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى» (طه ـ ٤٤) .. إن «القول اللين» مطلوب في مواجهة فرعون ، أحد رموز الطغيان والضلال في التاريخ ، فما بالكم بمن دونه ؟

ـ إن الحجة والبرهان هي سلاح المؤمن في الدعوة ، والقاعدة التي ينبغي أن يلتزم بها إزاء الآخرين . وفي نصوص القرآن الكثير مما يساق في هذا الصدد . «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (البقرة ـ ١١١) . «هل عندكم من علم فتخرجوه لنا» ؟ (الأنعام ـ ١٤٨) . بل إن القرآن لا يكتفي بذلك ، ويغري الكفار بالمناقشة والإتيان بالدليل على صحة دينهم . فيتظاهر جدلاً بأنه لا يقطع بأنه على حق وأنهم على باطل(٥) حتى يقول : «وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» ـ (سبأ ـ ٢٤) .

ـ إنه بعد التبليغ ، فإن الجميع (الأنبياء فما بالك بغيرهم ؟) ، ينبغي أن يرفعوا أيديهم عن ضمائر الناس ، وتظل مسألة التفتيش في الضمائر ومحاولات شق صدور الخلق ، عدواناً على سلطان الله عز وجل ، الذي أعلن على الجميع «إن علينا حسابهم» !

إن نتيجة الحوار والاختيار ، إن كانت سلبية ، ينبغي ألا تفسد ود بني

الإنسان ، ولا تخدش سياج الحصانة الذي كفله الإسلام لكافة خلق الله . فإرساء قيمة العدل بين الجميع أمر إلهي ، وضرب من تقوى الله . والتوجه الإلهي يذهب مذهباً فريداً في الدعوة إلى مد يد العون للآخرين . فآيـة سورة التوبـة (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ...) لا تدعو فقط إلى ضرورة حماية المشرك إذا لجأ إلى المسلم في ضيق ، ولكنها تطالبه بما هو أكثر من ذلك . تطالبه بأن يقف إلى جواره حتى يخرج من أزمته ويبلغ بر الأمان (.. ثم أبلغه مأمنه) ..

وإذا كان هذا شأن المشرك ، وواجب المسلم تجاهه ، فما بالكم بالكتابي الذي يؤمن بالله ؟؟

التسامح مع الاخرين

وفي ظل هذا التصور ، فإن إطلاق وصف «التسامح» على علاقة المسلمين بالآخرين لا يعد مستساغاً الآن بأي حال .

ذلك أنه قد يكون مفهوماً ومقبولاً أن يذكر «تسامح» المسلمين إذا كنا نتحدث عن التاريخ ، في مقام المقارنة بتعصب الآخرين ، واضطهادهم للمسلمين أو لمن على دينهم ولكن على غير مذهبهم (ما حدث بين الكاثوليك والبروتستانت مثلاً) . ولكن عندما نكون بصدد عرض علمي وجاد لموقف الإسلام من الآخرين ، فإنه لا يبقى ثمة مكان لمثل هذا الوصف . فمنذ متى كان التزام المؤمنين بالحقوق المقررة في العقيدة من قبيل التسامح ؟

غير أن هذا المعيار العقيدي لقسمة الناس ليس الأوحد المأخوذ به . فالأحناف والزيدية يرون أن القضية الفاصلة توفر عنصر «الأمان» بالنسبة للمقيمين فيها . فإذا كان الأمن فيها للمسلم على الإطلاق ، فهي دار إسلام . وإن لم يأمنوا فيها فهي دار حرب . ومن الباحثين من يذهب إلى القول بأنه إذا تحقق الأمان للمسلمين ، وإذا أقيمت الشعائر الإسلامية أو غالبها كانت البلاد دار إسلام ، حتى ولو تغلب عليها حاكم كافر[١٣] .

البر

هنا أيضاً ينبغي ألا يغيب عن أبصارنا أيضاً النص القرآني : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين (الممتحنة ٨) .

لقد عنى الله سبحانه وتعالى بذلك «جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ... إن الله يحب المنصفين ، الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرون من برهم ، ويحسنون من أحسن إليهم»[٥] .

والبر الذي يدعى المسلمون إلى ان يعاملوا به الآخرين ـ ما لم يقاتلوهم أو يظلموهم ـ سئل رسول الله عن معناه ، فيما رواه النواس بن سمعان ، فكان رده عليه السلام : البر حسن الخلق[٦] .

والبر هو من صفات الله سبحانه وتعالى (البرَّ الرحيم) ، وهو قيمة حث الله المسلمين على التحلي بها في كل زمان ومكان (وتعاونوا على البر والتقوى) ، وهو لفظ استخدمه القرآن الكريم في وصف العلاقة الحميمة بين الإبن والأبوين ، فيما قاله على لسان عيسى عليه السلام (وبرا بوالدتي) .

القتال

القتال يعطل رسالة التبليغ

إن المسالمة واجب يلزم به الإسلام معتنقيه ..

ـ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة[١٣] ـ (البقرة ـ ٢٠٨) .

ـ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم (التوبة ـ ٧) .

ـ وإن جنحوا للسلم فاجنح لهـا ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم (الأنفال ـ ٦١)

ـ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا (النساء ـ ٩٠) .

ـ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . (الممتحنة ـ ٨) .

ـ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (البقرة ـ ١٩٠) .

ويتفق مع السياق أيضاً حديث رسول الله ﷺ لا تتمنوا لقاء العدو ، وإذا لقيتموهم فاصبروا[١٤] .

ذلك أن المجتمع المسلم تشغله مهام وأهداف ، ليس بينها القتال ، ولا يتمنى أن يكون بينها . ولو انهمك الجميع في القتال ـ كما يصور البعض المسلمين ـ «لاشتغل الناس به عن العمارة وطلب المعاش ، فيؤدي ذلك إلى خراب الأرض وهلاك الخلق»[١٥] .

ليس هذا فقط ، لأن هناك اعتباراً آخر أهم وأخطر ، هو أن المجتمع الإسلامي له رسالة أبعد من «العمارة وطلب المعاش» . وهو إذا كان لا يقوم إلا إذا تحققت فيه تلك «العمارة ـ وهي القاعدة الاقتصادية لأي مجتمع ـ إلا أنه مكلف بتبليغ الرسالة إلى عموم البشر ، انطلاقاً من أن الإسلام دين هداية لبني الإنسان ، ونبيه عليه الصلاة والسلام بعث «للناس كافة» بشيراً ونذيراً ، وليس غازياً أو سلطاناً .

إن طريق الدعوة إلى الإسلام لا يمر بساحة الحرب في أي موضع وتحت أي اعتبار ، وينبغي ألا يمر !

هذا إذا ترك الأمر لاختيار المسلم وامتثاله للتوجيه الإلهي ...

أما الذين يعترضون هذا الطريق بالعدوان ، فإنهم لا يتركون للمسلمين خياراً ، إذ يصبح من واجب الأمة الإسلامية أن يهب أبناؤها بغير تردد للدفاع ، مضحين بالأنفس والأموال ، تأميناً للدعوة ودفعاً للمخاطر التي تهدد مجتمع المسلمين .

وعلى المسلمين ألا يركنوا إلى الدعة حتى يفاجئهم الخطر وهم قاعدون أو لاهون . إنما هم مطالبون بأن يتحسبوا لذلك اليوم ، استجابة للتوجيه الإلهي : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل (الأنفال ـ ٦٠) .

إن سيف الإسلام إذا شهر وأخرج من غمده فينبغي أن يظل تعبيراً عن القوة التي تحمي الحق ، لا القوة التي تهدر حقوق الآخرين أو تجور عليهم بالعدوان .

إن الإسلام لا يعتمد القتال وسيلة للتبليغ ، وآيات القرآن تشدد في النهي عن ذلك واستنكاره . ذلك أن حملة مشاعل الهداية لا يستطيعون أن يقتحموا ضمائر الناس وقلوبهم بالسهام والسيوف ، والذين يلجأون إلى تلك الأساليب يعلنون عجز حجتهم ويشهرون إفلاسهم منذ اللحظة الأولى .

الانتقام

ومنع حروب التشفي والانتقام للإساءات الأدبية : ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا (المائدة ـ ٢) .

وكذلك لا يجوز قتال من ألقى السلم ، ورد الغصب ، وكف عن الحرب ، ولا قتال غير المحاربين من النساء والشيوخ والمرضى ، لأن النص واضح : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم» ، أما الذين لا يقاتلون المسلمين فلا يؤخذون بجريرة المقاتلين .